

## الحلقة المفقودة في نهضتنا الفكرية

الملحق الثقافي لجريدة المغرب

استغرب البعض قولي إن الطالب القروي إذا خصص إحدى ساعاته لدراسة اللغة الفرنسية أثناء دراسته الثانوية استطاع أن يلتحق بمعهد الدروس العليا بالرباط لينال شهادة الكفاءة في الحقوق أو غيرها، وعللوا استغرابهم بأن المحصلين على شهادة « الدبلوم » لا يتابعون الدروس إلا بجهد.

يكاد المغاربة لا يعرفون اللغة الفرنسية إلا في صورة واحدة، ولا يستطيعون أن يعرفوا لتلك الدراسة صورة ثانية، فهم شاهدوا التعليم العصري بالمدارس الحديثة حيث يتقن التلميذ الفرنسية إتقاناً لا يقل عن إتقان التلميذ الفرنسي نطقاً وحديثاً وكتابةً، وذلك لأن تلك اللغة تحتل في مدارسنا الحديثة أكبر حظ من الدراسة، فأساتذتها مقتدرون، وآدابها تدرس بعناية فائقة، وجميع المواد تدرس بها من جغرافية وتاريخ وطبيعيات ورياضيات وعلوم فلسفية.

فمدارسنا تعتبر اللغة الفرنسية لغة أولى من بين اللغات التي تلقن؛ فهي تهيئ التلميذ المغربي كما تهيئ التلميذ الفرنسي، ولكن من الواضح أن كل مغربي متخرج منها إذا لم يكن ذا اتجاه قوى لإتقان العربية والتضلع في آدابها وعلومها سيضاف للأئمة المثقفين الفرنسيين دون أن يستفيد منه الوسط الفرنسي حيث يوجد فيه ألوف الناخبين المقتدرين، ولا يستفيد منه الوسط المغربي حيث لا يستطيع أن يجعل اللغة الفرنسية واسطة بينهما.

والذي يستطيع أن يدرس النهضة العربية ودعائها يجد هناك صورة أخرى للاستفادة من

اللغات الأجنبية الحية هي غير الطريقة المتبعة بالمغرب، وذلك بالتمكن أولاً في اللغة العربية بواسطة الثقافة القديمة ودراسة لغة أجنبية دراسة استفادة في ناحية من النواحي العلمية أو الأدبية لا دراسة تخصيص واعتبار لتلك اللغة الأجنبية لغة أصيلة للمتكلم بالعربية.

فإن أعلاماً من الثقافة العربية الحديثة لا يحسنون من اللغة الأجنبية إلا كيف يستفيدون منها في أبحاثهم ودراساتهم، ولا يهتمون كثيراً بالبراعة في إنشائها ولا بالخطابة بين خطبائها، إذ يتجهون في أول مرحلة في دراساتهم لتلك اللغة إلى فهم المصطلحات الفنية في العلم الذي يتخصصون فيه، ويستطيعون بذلك أن يتابعوا الدروس الجامعية بسهولة مع اعتكافهم على مراجعة ما في العربية من مصادر لموضوعات ما يدرسون. فإذا تقدموا لامتحان جامعي أدوا ما لديهم من معلومات ونظريات ولو في لغة غير بليغة، ونالوا الشهادة العليا، ورجعوا إلى بلادهم وقد وثقوا من نفوسهم، واستعد كل واحد لتأدية مهمة باعتباره مثقفاً يعمل لإنهاض بلاده ولغته. إن أعلاماً من دعائم النهضة العربية يفوقون الحصر مثل طه حسين وهيكمل وزكي مبارك والزيات وغيرهم في مصر، والحجابري وخليل مردم وغيرهما في سوريا، لو اطلع الشاب المغربي المثقف ثقافة حديثة على اطروحاتهم وأبحاثهم بلغة أجنبية لوجدها في مستوى وسط من ناحية الأسلوب واللغة بينما هم في البيان العربي آية من آيات نهضته. وذلك لأنهم تعلموا اللغة الأجنبية بعد أن أتقنوا اللغة العربية اتقاناً تاماً واستغلوا تعلمهم لتلك اللغة الأجنبية لا ليصبحوا أحد أبناءها بل ليستفيدوا منها لتراثهم الفكري، فأدوا بذلك واجبهم للغة الضاد، بينما من أتقن اللغة الأجنبية في أول مرحلة من صباه حيث دخل مدارسها أولاً فأتقن لغتها، ظل لا يحسن أن يفيد وسطه إلا بمقدار ولا لغته إلا بجزء.

إن إيجاد مثل هذه الطائفة في وسطنا ضروري لتكوين نهضة صحيحة، ولذلك يجب أن يتجه أبناء القرويين إلى دراسة اللغة الفرنسية بعد أن يتمكنوا من العربية؛ فإن المتخرج

من جامعة فاس لا يمكن أن يرشح نفسه إلا للعدالة أو القضاء الشرعي حيث ينقصه أن يعلم المغرب الحديث في نظمه وقوانينه، كما ينقص التلميذ المتخرج من المدارس العصرية أن يعرف الماضي المغربي المسطور في تشريعه وتاريخه. وإيجاد هذه الحلقة المفقودة بين المثقفين هو الذي يضمن للمغرب نهضة فكرية صحيحة تهضم إنتاج المدنية العصرية، وتنتج للمغرب وللعربية آثارا يكتب لها الخلود. وإنه لمن دواعي السرور أن نشاهد الآن طائفة من الشبان المغاربة المثقفين ثقافة فرنسية درسوا العربية وآدابها فبرعوا فيها ووضعوا الحجرة الأولى في أساس إيجاد هذه الحلقة المفقودة المرجوة.

فهل لنا أن نؤمل أن يوجد من بين طلبة القرويين من يتجه هذا الاتجاه فيضيف إلى ثقافته في العلوم الإسلامية والعربية ثقافة عصرية، وبذلك يضع الحجرة الثانية في تكوين جيل جديد يجمع بين الماضي الرائع والمستقبل الباسم لحياة المغرب الفكرية؟